القبارصة وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة الإسكندرية فى العصر العثمانى ٩٢٣- ١٢١٣هـ/ ١٥١٧ – ١٧٩٨م)، دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية

أ.د/ صلاح أحمد هريدى على*

لقد كان لوقوع مصر وقبرص على البحر المتوسط، أثر فى ذلك الاحتكاك السياسي والاقتصادى والاجتماعى، باعتبار أنهما خضعا للسيطرة العثمانية، فالأولى خضعت عام ١٥١٧م، والثانية خضعت خضوعًا مباشرًا بعد موقعة ليبانتو ١٥٧١ أو كما يسميها الأتراك العثمانيين اينبختى، واعترفت البندقية بموجب الصلح الذى عقدته مع الدولة العثمانية فى إبريل ١٥٧٣، والذى اعترفت فيه باستيلاء العثمانيين على قبرص مع تعهدها بدفع الجزية السنوية المقررة منذ عهد السلطان سليمان القانونى.

وسوف نتناول تطور العلاقات بين الجانبين طوال العصر المملوكى والعثمانى، وأثر ذلك على الناحيتين السياسية والاقتصادية، ثم نتعرَّض بعد ذلك إلى حياة القبارصة فى الإسكندرية وممارستهم النشاط الاقتصادى بكافة أنواعه، ثم ننتقل بعد ذلك لممارستهم الحياة الاجتماعية فى كافة أنماطها وأشكالها.

فقد امتازت مصر بموقعها الجغرافى بين القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا، وقد لعبت الملاحة دورًا مهمًا فى ربط مصر بشعوب تلك البلاد عن طريق البحر المتوسط شمالا، والبحر الأحمر شرقًا، ثم النيل الذى يربط بين أجزائها وبين شعوب أفريقيا جنوبًا. ويعد البحر المتوسط منذ أقدم العصور مركزًا للحضارات الكبرى، وأداة وصل بينهما شرقًا وغربًا. وقد حمل لواءها الشعوب المطلة عليه، كالمصريين القدماء والفينيقيين واليونان والرومان ثم العرب، وقوة أساطيلها التى تمخر فى عبابه.

وتطل مصر على البحر المتوسط بساحل يمتد من رفح حتى السلوم[١]، ورغم طول السواحل المصرية، فإن قلة الموانئ الصالحة وملائمة الظروف الطبيعية والاقتصادية للنشاط

---

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، كلية الآداب بدمنهور – جامعة الإسكندرية جمهورية مصر العربية.

(١) محمد فاتح عقيل، أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر العربية، فى كتاب تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية، ١٩٧٤، ص١٩.

البشرى وغنى البيئة فى الدلتا والوادى جعلت هذا النشاط البحرى قريبًا من منفذ الدلتا إلى البحار، ويتضح ذلك فى كثير من عهود التاريخ المصرى، وقد أدت ضرورة توفير هذه المنافذ إلى إنشاء ميناء الإسكندرية والعمل فى توسيعها وتدعيمها لتلاءم احتياجات السفن الحديثة ذات الغاطس الكبير، فأهملت تبعًا لذلك الميناء الشرقية منها[١].

ولما جاء الإسكندر إلى مصر اختار موقع الإسكندرية فى مكان راقودة المواجهة لجزيرة فاروس البعيدة عن غرين النيل. وبدأ يشحن منها الإغريق قمح مصر. وقد جعل هذا الميناء من الإسكندرية عاصمة العالم الثقافية فى القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد. أما بعد عهد الإسكندر، فقد برزت قيمة موقع مصر وسواحلها وأصبح تاريخ مصر وحياة مجتمعها مرتبطة أشد الارتباط بهذا الموقع وبدأ البطالمة فى إعداد مصر لأن تكون قاعدة صالحة للتحكم فى طريق المواصلات العالمية، ثم التوسع التجارى والثقافى، والتفتوا نحو فتح طرق التجارة خصوصًا طريق البحر الأحمر إلى الشرق والهند، فأصبحت مصر بالتدريج حلقة الاتصال التجارى فى العالم[٢] وفى العهد الرومانى استمر الرومان فى استغلال موقع مصر الجغرافى، وازدادت مطالب الإمبراطورية من منتجات البلاد الجنوبية الشرقية، وفى العهد البيزنطى اشتد الصراع بين الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية. وحتى يستطيع البيزنطيون مقاومة احتكار أعدائهم الفرس لتجارة الهند، عملوا على تشجيع طريق البحر الأحمر، وفضلوا أن تصلهم هذه التجارة عن طريق الأحباش والتجار اليونانيين الذين كانت تربطهم مصالح مشتركة[٣]، وفى العهد العربى الإسلامى اهتم العرب بالبحر الأحمر أكثر من اهتمامهم بسواحل المتوسط[٤] هذا بالنسبة لأهمية موقع مصر الجغرافى.

أما عن أهمية موقع الإسكندرية فإنها تشغل شريطًا ساحليًا ضيقًا يقع بين البحر المتوسط فى الشمال وبحيرة مريوط فى الجنوب. ويبلغ هذا الشريط الساحلى أقصى اتساعه فى الشرق عند رأس المنتزة حتى يصل نحو خمسة كيلو مترات. ويأخذ فى الضيق تدريجيًا كلما اتجهنا نحو الغرب حتى أن اتساعه لا يتجاوز كيلو متر واحد فى منتصف المسافة بين المكس والدخيلة.

---

(١) محمد فاتح عقيل، المرجع السابق، ص٤٣.

(٢) نفسه، ص٤٦.

(٣) نفسه، ص٤٨.

(٤) نفسه، ص٥٠.

ويبرز من هذا الشريط الساحلى فى البحر المتوسط بروز يابس يمثل جزيرة فـاروس القديمة واللسان الذى يصل بينها وبين الساحل، وقد كان هذا الوصل الصناعى بـين جزيـرة فاروس واليابس بمثابة خلق لمدينة الإسكندرية، إذ أعطى الفرصة لقيام ميناءى الإسـكندرية؛ الميناء الشرقية، وهى الميناء الصغيرة المهجورة حاليًا، والميناء الغربية وهى الميناء الكبيـرة التى يقصد بها فى الوقت الحاضر ميناء الإسكندرية.

وتشرف مدينة الإسكندرية على واجهة بحرية طويلة، يبلغ طولها من رأس المنتزة فى الشرق إلى رأس العجمى فى الغرب نحو سبعة وعشرين كيلو مترًا. وقد سهل هـذا الامتـداد اتصال مختلف أحياء الإسكندرية بالبحر، وبالتالى مكن المدينة من الاستمتاع بالمزايا البحريـة المختلفة.

وتكاد تتفق الحدود الإدارية لمدينة الإسكندرية مع حدودها فهى تبدأ من الـشرق مـن سراى المنتزة على شكل خط متعرج يتجه نحو بحر الجنوب الشرقى، ثم لا يلبـث أن يغيـر اتجاهه نحو الجنوب الغربى بصفة عامة حتى تصل إلى الشاطئ الـشمالى لبحيـرة مريـوط. وتبدأ فى الغرب من رأس العجمى على شكل خط مستقيم يتجه نحو الجنوب حتى يـصل إلـى الشاطئ الشمالى لبحيرة مريوط أيضًا. أما منطقة الإسكندرية فهى تشمل مساحة أوسـع ممـا تشغله المدينة أو مما يدخل إداريًا فى نطاق محافظة الإسكندرية (حاليا) [١].

فمن الشرق اعتبار خليج (أبوقير) وبحيرة إدكو حدًا لمنطقة الإسكندرية ومن الغـرب تمتد منطقة الإسكندرية حتى الطرف الغربى الأقصى لذراع بحيرة مريوط. وعليـه فمنطقـة الإسكندرية تمتد من رأس (أبوقير) فى الشرق إلى جهة برج العرب تقريبًا فى الغرب.

وتمثل منطقة الإسكندرية – على هذا الأساس – أقصى الطرف الشمالى الغربى لـدلتا النيل، إذ يدخل فى نطاقها جزء من منطقة الإرسابات الدلتاوية، يقع بين خليج (أبوقير) وبحيرة إدكو من جهة وبحيرة مريوط من جهة أخرى. كذلك تمثل منطقة الإسـكندرية – مـن جهـة أخرى – الطرف الشرقى لإقليم ذى خصائص جغرافية فريدة فى مصر وهو إقلـيم مريـوط الذى يمتد على طول ساحل البحر المتوسط ويتميز هذا الإقليم بإشرافه على البحر من الـشمال بخصائص فزيوغرافية ومناخية تجعله يختلف عن الصحراء التى ينتهى إليها فى الجنوب.

---

(١) محمد صبحى عبدالحكيم، مدينة الإسكندرية، تاريخ المصريين رقـم ٢٥٨، القـاهرة ٢٠٠٧، ص١٥، ١٦.

وتدخل بحيرة مريوط فى منطقة الإسكندرية، بل وتعتبر من أهم الظاهرات الفزيوغرافية فيها. وقد لعبت هذه البحيرة دورًا مهمًا فى حياة المدينة. فقد كانت فى العصور القديمة عامل وصل بين الإسكندرية وبين سائر جهات مصر، حينما كانت للإسكندرية ميناء على هذه البحيرة تصل إليها السفن من مختلف أجزاء مصر عن طريق النيل وفروعه القديمة.

أما فى العصور الحديثة، فقد لعبت البحيرة دورًا آخر، يتمثل فى أنها حالت بفضل موقعها دون امتداد المدينة نحو الجنوب ولما كان البحر يحول – هو الآخر – دون امتدادها نحو الشمال فلم يكن أمام المدينة إلا اتجاهان لتوسعها وامتدادها. وقد تضافرت عوامل أخرى – على أن الاتجاه الشرقى كان له النصيب الأكبر من امتداد المدينة وتوسعها، مما أدى إلى اتصال المدينة بالتدريج اتصالاً وثيقًا بدلتا النيل، أو بمعنى آخر بالجزء المعمور من مصر بصفة عامة.

ويقول محمد صبحى عبدالحكيم نخلص مما تقدم إلى أن منطقة الإسكندرية تتميز بظاهرة التنوع الجغرافى. فهى تشرف على البحر المتوسط من الشمال، على بحيرة مريوط من الجنوب، وتمثل الطرف الشمالى الغربى لدلتا النيل من جهة الشرق، بينما تمثل الطرف الشرقى لإقليم مريوط من جهة الغرب(١).

وعندما تعرضت الإسكندرية لحملة بطرس لوزجنان فى عام ١٣٦٥م شعر السلطان الملك الأشرف شعبان منذ تلك الواقعة أن الإسكندرية قد عدت محط أنظار الفرنج، ومبعث الحظر الذى قد يهدد الدولة كلها إذا أزمع الأعداء العودة إليها، فزادت عنايته بها، ورفع مكانتها، وزاد فى قدر حاكمها، فبعد أن كانت الإسكندرية يليها والٍ من أمراء الطبلخانة، جعلها الأشرف شعبان فى نفس السنة التى غزاها القبارصة (أى ١٣٦٥م). نيابة يحكمها نائب عن السلطان من الأمراء المقدمين. والمقصود بالنائب فى مصطلح العصر المملوكى أنه ينوب عن السلطان فى حكم المدينة(٢).

هذه هى الإسكندرية حتى أواخر القرن الرابع العشر الميلادى، غير أنه من الملاحظ أن غزوة القبارصة كانت بالغة الأثر فى تاريخ المدينة، فقد قضت على الكثير من سكانها قتلاً

---

(١) محمد صبحى عبدالحكيم، المرجع السابق، ص١٦، ١٧.

(٢) جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٦٧، ص١٣٩، ١٤٠.

وأسرًا، كما خربت الكثير من معالمها، أما أهلها الذين فروا منها أثناء الواقعة فإنهم لم يعودوا إليها جميعًا، فقل سكانها واتضحت أحوالها[١].

وفى القرن الخامس عشر الميلادى عنى السلطان الملك الأشرف قايتباى بالإسكندرية عناية خاصة فزارها فى سنة ١٤٧٧، واحتفلت المدينة بمقدمه احتفالاً عظيمًا، ورأى أن المنار القديم كان قد ناله ما نال المدينة نفسها من إهمال، تهدمت أركانه وتشعث بنيانه تمامًا، فأمر الأشرف – فى مقدمته هذه – أن يبنى برج جديد هو ما عرف فيما بعد برج قايتباى، ثم طابية قايتباى، التى لا تزال باقية حتى اليوم[٢].

وزارها الغورى فى عام ١٥١٠، وأطمئن على أحوالها وحصونها ولم يلبث بها إلا أيامًا قليلة، ثم عاد إلى القاهرة وفى يناير ١٥١٥ زارها الغورى للمرة الثانية وكانت المدينة قد وصلت فى تأخرها وخرابها إلى الحضيض[٣]. وكانت الأمور تتعقد فى سرعة غريبة بين مصر والدولة العثمانية، والعلاقات بينهما تسير من سئ إلى أسوأ، وعاد إلى مصر رسول كان قد أرسله الغورى إلى ملك التتار وأخبره لما مر ببلاد عثمان. وفزع السلطان الغورى لهذه الأخبار فزعًا شديدًا، ورحل إلى الإسكندرية فى زيارة سريعة أخيرة فى أكتوبر ١٥١٥، فتفقد أحوال أبراج الإسكندرية ورشيد. وكانت هذه آخر زيارة زارها سلطان مملوكى لمدينة الإسكندرية، ووافى الخطر بأسرع مما كان يتوقع الغورى، وأقبلت جيوش العثمانيين بقيادة سليم الأول فاستولت على الشام فى ١٥١٦، ومصر ١٥١٧م[٤].

وكانت الإسكندرية بحكم موقعها مع بداية العصر العثمانى تفوق القاهرة ويرجع ذلك لاتصالها بأوروبا مباشرة وموانئ مصر إبان العصر العثمانى هى الإسكندرية ورشيد ودمياط والسويس. وكانت هذه الموانئ لها إدارة خاصة استقلت عن الباشا فكان الباب العالى يرسل إلى مصر ثلاثة قبودانات أحدهم للإسكندرية والثانى لدمياط ورشيد والثالث للسويس[٥] ويحمل هؤلاء القابودانات رتبة الباشوية بالإضافة إلى حملهم رتبة الصنجقية[٦]

---

(١) جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص١٣٧.

(٢) نفسه، ص١٤٩، ١٥٠.

(٣) نفسه، ص١٥٣، ١٥٤.

(٤) ليلى عبداللطيف أحمد، الإدارة فى مصر فى العصرالعثمانى، مطبعة جامعة عين شمس القاهرة ١٩٧٨، ص٣٨٧.

(٥) نفسه، ص ٣٨٨.

(٦) السنجق أو الصنجق، من التركية سنجاق وهو العلم والقسم من ولاية كثيرة والحاكم على قسم من ولاية، وقد تكون الصنجقية أيضًا مجرد رتبة، وكان عدد الصناجق ٢٤ كما حددهم سليم الأول بما فيهم=

مثل كتخدا[١] (الباشا) فيعتبرون صناجق كالبكوات[٢] الصناجق لهم مرتب نقدى (ساليانة) [٣] ومرتب عينى (جراية وعليق) [٤] تصرف لهم من خزينة مصر ولكنهم لم يكونوا أعضاء فى الديوان العالى مثل البكوات الصناجق ولا دخل لهم بإدارة مصر، بل كانت مهمتهم الأساسية حفظ القلاع وربط البنادر والحكم بين الرعايا بالعدل والشفقة وعوائدهم على طرف الميرى من أصل السالیانات المرتبة وعلى جانب التجارات المحضرة بالبنادر[٥].

أما قبرص فإنها تقع وسط الركن الشمالى الشرقى من البحر المتوسط بين خطى عرض ٣٤ ْ، ٣٦ ْ شمالاً، وخطى الطول ٣٢ ْ، ٣٥ ْ شرقًا. وهى ثانية جزائر ذلك البحر الهادئ بعد صقلية وسردينيا، وتاريخها يشبه تاريخ صقلية بالذات فى كثير من المراحل، وتبلغ مساحة قبرص نحوًا من ٣٥٨٤ ميلاً مربعًا، مما جعل الجغرافيين العرب يعتبرونها من "أعظم جزائر بحر الروم" ثم إنها تكاد تكون على مسافة متعادلة بين آسيا الصغرى وبلاد الشام، مما جعل مصيرها مرتبط أشد الارتباط بهذين البلدين. ووقوعها بين ثلاث قارات جعلها منذ القدم قنطرة بين الشرق والغرب، ومن هنا يظهر الفرق الواضح بين الجزائر التى توجد مبعثرة

=كتخدا الوزير، وإن لم يكن عددهم كاملاً فى كل الأحيان، وقد احتفظت الدولة بتعيين صناجق الثغور الثلاثة المهمة الإسكندرية ودمياط والسويس، أما باقى الصنجقيات فقد كان التعيين فيها يتم تبعًا لقوة المتنافسين على السلطة فى مصر. (انظر، محمد شفيق غربال، مصر عند مفترق الطرق، ١٥١٧– ١٧٩٨م، إجابة حسين الروزنامجى، على استيف مدير الإدارة المالية الفرنسى، كلية الآداب، جامعة (فؤاد الأول)، القاهرة، ١٩٣٦، ص٢٢).

(١) كتخدا: لقب وظيفى، ينطق بفتح الكاف وسكون التاء وضم الخاء فى التركية كتخدا، من الفارسية كتخدا وهى تتكون مقطعين كد بمعنى البيت وخدا بمعنى الرب والصاحب والكتخدا فى الأصل رب البيت ويطلقها الفرس على السيد الموقر. ويطلقها الترك على الموظف المسؤول والوكيل المعتمد والأمين والعريف والنقيب والرئيس. ومنها الكخيا التى نحتها الترك نحتًا مرتجلاً وتجمع كتخدا على كواخى (انظر، مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية دراسة فى تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثمانى لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمحفوظات ١٥١٧– ١٩١٤، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٤٤).

(٢) البك: وهى كلمة تركبة من بيوك أى كبير أما بيك بياء مثناه تحتية، بعد الباء الموحدة التحتية فهى خطأ. ومن معانيها أيضًا أمير. حاكم، رئيس. آمر. (انظر، مصطفى بركات، المرجع السابق، ص١٥٨.

(٣) ساليانه: مرتب سنوى نقدى يصرف من الخزينة للباشا ولكبار الأمراء الصناجق وغيرهم من كبار الموظفين. (انظر، ليلى عبداللطيف أحمد، المرجع، ص٤٤٨).

(٤) جراية وعليق: جمعها جرايات وعلائق وتعنى المرتبات العينية من قمح وشعير والتى كانت تصرف من الخزينة للباشا وكبار موظفى الإدارة (انظر، ليلى عبداللطيف، المرجع السابق، ص٤٤٤).

(٥) ليلى عبداللطيف أحمد، المرجع السابق، ص٣٨٨.

وسط المحيطات الواسعة، بعيدة عن طرق الملاحة والمؤثرات الحضارية المختلفة إلا أحيانًا قليلة، وتلك التى توجد فى بحار ضيقة وعلى مقربة من شواطئ القارات وما يجرى فيها من تيارات سياسية أو تجارية أو ثقافية؛ إذ لا يقتصر الأمر فى ذلك الصنف الثانى على التأثر بهذا أو ذاك من المؤثرات؛ بل تكون بمثابة المحطة التى تستقر فيها تلك المؤثرات قبل أن تنتقل عنها إلى ما وراءها من البلاد، وتاريخ قبرص وروودس ومالطة وكريت وصقلية وسردينيا مصداق لكل ذلك؛ ولعل تاريخ قبرص بوجه خاص هو المثل التوضيحى للدلالة على ما لهذا النوع من الجزائر من أهمية فى تاريخ الحضارات. ففى تلك الجزيرة اصطدم الجنس السامى بالجنس الآرى، وبين ربوعها التقى الشرق بالغرب على مر القرون، وفى رقعتها الضيقة اجتمع الإسلام والمسيحية(١).

على أن موقع قبرص الجغرافى بين الشرق والغرب لم يكن المصدر الوحيد لأهميتها فى التاريخ؛ بل إن ثروتها الطبيعية جلبت لها شهرة واسعة من قديم الزمان. وأول هذه معدن النحاس الذى اشتق اسمه من اسم الجزيرة فى معظم اللغات الأوروبية بل واللغة العربية أيضًا. يضاف إلى ذلك كروم قبرص الممتاز ونبيذها الجيد الذى ما زال يتمتع بشهرة عالمية واسعة. ثم إن الجزيرة فضلاً عن ذلك تنبت بها الحبوب والخضر والقطن والفاكهة وقصب السكر، ويستخرج منها الملح والأخشاب وعسل النحل والشمع وزيت الزيتون والمصطكى.

وإذا كانت قبرص قد امتازت بحسن موقعها الجغرافى وصلاحيتها لأن تكون مركزًا تجاريًا وحربيًا من الطراز الأول، كما امتازت بخصوبة تربتها ووفرة غلاتها وتنوع حاصلاتها، فإن تلك المميزات جاءت فى الواقع نكبة عليها وسببًا فى استعمارها فينة بعد أخرى. فاستعمرها الفينيقيون الذين قصدوا قبرص طمعًا فى نحاسها فحلوا بها زمنًا غير قصير. كذلك أسس الإغريق لأنفسهم عدة مستعمرات بقبرص حتى غزاها تحتمس الثالث سنة ١٥٠٠ ق.م. وجعلها جزءً من إمبراطوريته المصرية الواسعة. ثم تعاقب على قبرص الآشوريين فالمصريين من جديد فالفرس فالمقدونيين فبالبطالمة فالرومان، حتى كان تقسيم ثاودا سيوس الأول للإمبراطورية الرومانية بين ولديه سنة ٣٩٥م. فغدت قبرص من نصيب الدولة الشرقية وبقيت تابعة لتلك الدولة حتى ظهور الإسلام واتساع دولة المسلمين على حساب كل من الدولتين الفارسية والبيزنطية(٢). وأرسلت العديد من الحملات الإسلامية لغزو

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور، قبرص والحروب الصليبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٧، ص٢، ٣.

(٢) نفسه، ص٣، ٤.

قبرص وعقدت الكثير من المعاهدات وخصوصًا عصر فى الدولتين الأموية والعباسية إلى انتهى الأمر فى انصراف المسلمين عن قبرص منذ أواخر القرن العاشر ولم تعد الدولة الإسلامية قادرة على القيام بمجهودات حربية كبرى بعد أن خرجت عليها الدولة الفاطمية وغيرها من الدول بالشرق والغرب الإسلامى، وأصبح معظم نشاط تلك الدول التى انقسمت إليها الإمبراطورية الإسلامية موجهًا ضد بعضها البعض لما بينها من تنافس مذهبى شديد. أما السلاجقة الذين غدوا دولة إسلامية عظيمة فى العراق والشام والأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى والذين اخذوا فى القرن الحادى عشر الميلادى يقتطعون الجزء تلو الجزء من ممتلكات الدولة البيزنطية، فإنهم ظلوا قوة برية لأنهم لم يعتادوا ركوب البحر والمغامرة فيه، ولذا بقيت قبرص فى مأمن من حركتهم التوسعية الهائلة(١).

وفى عهد الدولة المملوكية الأولى هاجمت الإسكندرية حملة قبرصية بقيادة بطرس لوزجنان فى ٨ أكتوبر عام ١٣٦٥م. واستولى عليها، وانتشر ورجاله فى المدينة وسقطت الإسكندرية، وفى وسط تلك الطامة الكبرى استغل العربان الفرصة للنهب والسلب فوقع السكندريون بين نارين، كما ساءت حالتهم بقلة الطعام إذ استغل التجار والباعة اضطراب الأحوال وعمدوا – كعادتهم – إلى رفع أسعار المأكولات، حتى اضطر كثير من الإسكندريين إلى بيع ملابسهم لشراء ما يمسك به رمق أهله(٢).

وأرسلت حملة أيضًا فى عهد الدولة المملوكية فى زمن برسباى إلى قبرص فى عام ١٤٢٦م، وأرسلت حملات برية وبحرية وهزم الجيش القبرصى بقيادة ملكهم جانوس، لدرجة أن الملك جرح فى ثلاثة مواضع، فارتبك فسقط عن فرسه وأركبه أصحابه فكب به الفرس ثانية، ورآه بعض الممالك فهجموا عليه يريدون قتله، ودون أن يعلموا من هو فصاح بالعربية "أنا الملك" فأسره المسلمون. وقتل فى تلك الواقعة شقيق جانوس(٣) ووصل جانوس إلى حضرة السلطان، فأمر بتقبيل الأرض فقبلها ثم سقط مغشيًا عليه حتى ما أفاق قبل الأرض مرة أخرى(٤) ودفع الفدية بعد ذلك وأفرج عنه وعاد إلى بلاده(٥).

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور، المرجع السابق، ص١٥، ١٦.

(٢) نفسه، ص٦٤، ٦٥.

(٣) نفسه، ص١١١، ١١٢.

(٤) نفسه، ص١١٧.

(٥) نفسه، ص١١٩، ١٢٠.

وصارت قبرص فى سنة ١٤٨٩م، تابعة للبندقية على الرغم من تبعيتها الرسمية وجزيتها السنوية إلى سلطنة المماليك، وكان استيلاء البندقية على قبرص تلك السنة لغرض خاص هو استغلال موقع الجزيرة الاستراتيجي للوقوف فى وجه العثمانيين الذين أضحى نفوذهم فى ازدياد مخيف يدعو إلى القلق(١). وبانتقال مصر إلى السلطان سليم فى ١٥١٧، أبلغت جمهورية البندقية من تلقاء نفسها بأنها سوف تدفع الجزية الخاصة بقبرص إلى استانبول.

ولم تكن قبرص وكرًا للقراصنة وبلية على المسلمين كجزيرة رودس فى حالة الصلح مع البندقية، ولكنها كانت كذلك عندما تكون البندقية فى حالة حرب مع الدولة العثمانية، لكن وجود مستعمرة لاتينية من بقايا الحروب الصليبية فى شرق البحر المتوسط، كان شيئًا قد مضى عهده، كانت تقطع طريق الأناضول – مصر البحرى – هذا عدا أنها كانت فى عهد الأمويين وبداية عهد العباسيين تشكل إحدى إيالات الإمبراطورية الإسلامية، ثم انتقلت لحوزة البيزنط، ومازال بقبرص أماكن إسلامية مقدسة من بقايا الحكم العربى(٢).

ونشأت فكرة فتح قبرص عند سليم الثانى (٧/ ٩/ ١٥٦٦) كان صوقللو معارضًا. كان الأميرالات يضغطون على البادشاه(٣) لتحقيق ذلك ويبحثون عن محاذير بقاء مستعمرة أوروبية فى شرق البحر المتوسط. كان خروج السلطان والوزير الأعظم فى حملات عبر البحار ممنوعًا فى النظام العثمانى. كان صوقللو يخشى من وزير يفتح قبرص، فيحصل على شهرة فائقة وفى الوقت ذاته كان يقول: "إن محاولة كهذه سوف لا تقتصر على حرب عثمانية – بندقية وإنما سوف تجر إلى حرب أوربية جديدة(٤).

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور، المرجع السابق، ص١٦٤.

(٢) يلماز أوزتونا، الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، مراجعة وتنقيح محمود الأنصارى، المجلد الأول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، استانبول، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٨، ص٣٦٨، ٣٦٩.

(٣) البادشاه: لقب وظيفى يتكون من باد وهى تخت أو عرش، وشاه تعنى سيد أو صاحب. وبادشاه تعنى السلطان أو الملك أو الحاكم والنسبة منه بادشاهى تعنى الملك أو السلطة. وأضيف إلى استعماله فى العصر العثمانى إطلاقه على بعض الحكام الغربيين ويبدو أن أول استخدام له فى هذا الصدد كان فى القرن السابع عشر، حيث أطلقه الصدر الأعظم قويونجى مراد باشا (ت١٦١٢م) فاستعمل فى الرسائل المتبادلة بين البابا العالى والدولة الغربية، إذ أطلق على رودلف إمبراطور النمسا. وفى مؤتمر تميدوف الذى عقد عام ١٧٣٧ طالبت روسيا بإطلاق هذا اللقب على قياصرتها وطالبت به مرة أخرى فى مؤتمر بوخارست عام ١٧٧٣م (انظر، مصطفى بركات، المرجع السابق، ص١٧).

(٤) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص٣٦٩.

قام الوزير داماد بياله باشا[١] بواسطة التشكيلات السرية العثمانية بعملية تدمير واسعة فى ميناء ومصنع السفن البندقى شب حريق كبير، استولى الذعر على الناس، احترقت سفن كثيرة فى الميناء وفى المصنع، انتبه مجلس السناتو فى البندقية اتضح أن الهدف هو قبرص. ذهب أسطول مسيحى مكون من ٢٠٤ قطعة إلى المياه القبرصية لحماية الجزيرة رتب الديوان لقبرص أكبر عدد من السفن لم يسبق أن تجمع حتى ذلك التاريخ دفعة واحدة، خصص لهذه العملية ٤٠٠ جاء أسطول الاستطلاع لمراد ريس إلى مياه قبرص فى شهر مارس (آذار) وفى شهر مايو (آيار)، سار الوزير ٣ داماد بياله باشا بالقسم الأعظم من الأسطول الهمايونى من استانبول فى الخامس عشر من مايو (آيار) ١٥٧٠. ولكون قائد القوات البحرية وناظر البحرية مؤذن – زاده على باشا جنرالا بالأصل وليس أمير بحر، عين للقيادة بيالة باشا. أما الجيش البرى فقد تولى قيادته الوزير ٦ لالا مصطفى باشا وسوف يكون هو المسئول من فتح الجزيرة. وبذلك يكون قد كلف لفتح قبرص أميرال – كبير، ١ مارشال (مشير) ٣ فريق أول بحرى و٧ فريق أول. العرفاء الأول البحريون هم ناظر البحرية على باشا بربروس – زاده حسن باشا وأولوج على باشا كان الأسطول يحتوى على ١٠٠٠٠٠ شخص، ٦٠٠٠٠ منهم

---

(١) باشا: ورد فى اشتقاق هذا اللقب عدة أقوال، الأول أن أصلها "باى شاه" الفارسية، ومعناها قدم الملك، وقد بنى هذا التأويل على أساس أن الفارسية القديمة كان فيها موظفون يسمون "عيون الملك". وقيل أن أصلها الكلمة التركية "باش" ومعناها رأس أو طرف أو قمة أو زعيم أو قائد أو البداية أو المبدأ أو القاعدة أو الأساس. وتوضع قبل الصنعة أو الوظيفة مثل باشكاتب أو فى آخرها مثل حكيمباشى ويلزم فى الحالة الأخيرة أن تلحق بالشين ياء هى ياء الإضافة فى التركية ويكون المعنى رئيس الحكماء. وقد قيل إن هذا الرأى خاطئ فإن باشا صيغة مخففة لكلمة "باشكال" أو باشكال" ومعناها حاكم عسكرى. وقد استعملت الكلمة كلقب عسكرى بمعنى كبير الأغوات. وقيل إن باشا مأخوذة من الكلمة التركية "باشى أغا" وذكر فى تأييد هذا أن معنى هذه الكلمة الأخ الأكبر. وقيل أيضًا أنها مأخوذة من اللفظ الفارسى "بادشاه" أى الملك. آخر تلك الآراء أنها مأخوذة من الكلمة التركية "باصقاق" وقد رسمت باشقاق ومعناها حاكم أو صاحب شرطة.

وقد ظهر اللقب أول ما ظهر فى ق ٨هـ/ ١٤م وكان علاء الدين أخو أورخان بن عثمان أول من لقب بلقب باشا. فقد عينه أورخان صدرًا أعظم وخلع عليه لقب باشا، ومنذ ذلك بدئ بمنح لقب باشا لرجال السياسية مثل سنان باشا الذى منحه فى عهد أورخان وأمراء الجيش كما منح هذا اللقب أيضًا للنساء فى ق ٨هـ/ ١٤م. وسرعان ما أصبح لقب باشا امتيازًا لطبقتين من أصحاب المناصب الأولى حكام الأقاليم "بلكربكى" وكان أول بكلربيكى يمنح هذا اللقب هو لاله شاهين ثم منح إلى بكلربيكى الأناضول، وكلما كبرت الدولة أنشئ فيها مناصب جديدة وأعطى اللقب إلى أصحاب هذه المناصب من الولاة "البكلربكية" أو الطبقة الثانية فهم وزراء القصبة. (انظر: مصطفى بركات، المرجع السابق، ص٨١، ٨٢.

جنود مشاه والبقية بحرية وجدافة. دخل الأسطول ميناء ليماسول فى الأول من يوليو ١٥٧٠ وجرت عملية الإنزال فى اليوم التالى[١].

إن أقرب نقطة من قبرص إلى الأناضول ٧٠، إلى سورية ١٠٠، إلى مصر ٣٨٠كم. وفى ٤ يوليو (تموز) جرى إنزال على ميناء لارنقة كذلك (بالتركية: طوزلا) فتحت Kyrinia (بالتركية: كيرنة أو سربينية) فى ٩ يوليو (تموز) وبدأت محاصرة لفكوشة فى ٢٢ تموز (يوليو). كان مركز الجزيرة لفكوشة، لكن أقوى القلاع تحصيناً كانت ماغوسا. كانت حامية لفكوشة ١٠٠٠٠ بندق و١٥٠ مدفعًا. فتحت لفكوشة فى الهجوم العام الثالث بعد ٤٩ يومًا (٩ سبتمبر (أيلول ١٥٧٠)، قتل والى عام قبرص Nicalo Dandolo وبعد فترة قليلة استسلمت باف، ليماسول، ولارنقة، عُين لالا مصطفى باشا، والى شهر زور السابق مصطفى باشا واليا على قبرص واستبقاه فى لفكوشة مع ٢٠٠٠ جندى وجاء أمام ماغوسا. وكان ٥ جنرالات بندقيين يقومون بحماية ماغوسا المحصنة جدًا، ومعهم ٧٠٠٠ من جنودهم و٧٥ مدفعًا لكنها تسلمت فى هذه الأيام ١٦٠٠ جندى وكمية كبيرة من المهات عاد بيالة باشا إلى استانبول وفى ٤ آيار (مايو) ١٥٧١، غادر استانبول الوزير برتو باشا (الذى لم يكن أميرالا وكان عسكريًا بريًا) وعين قائدًا للأسطول (دونماغة سردارى) [٢] كان بيالة باشا. وهذه إحدى ترتيبات صوقوللو الغريبة التى تدل على نفوره من البحريين أبحر برتو باشا مع قائد القوات البحرية مؤذن – زاده على باشا مع ٤٠٠ قطعة من الأسطول الهمايونى إلى إيطاليا، وحالوا دون قدوم المساعدات إلى قبرص بنجاح. وفى الوقت الذى كان فيه الأسطول يقول بإنزال على صقلية، كان لالا باشا مستمرًا فى حصار ماغوسا وكان قد استبقى تحت امرته ٤٠ سفينة فقط. كان باقى الأسطول قد انتشر فى مياه إيطاليا وبضمنة أولوج على باشا وبربروس – زاده حسن باشا.

سقطت ماغوسا فى الهجوم الأول من أغسطس ١٥٧١ وتم فتح قبرص فى غضون ١٣ شهرًا. تكونت الإيالة الجديدة بإضافة ٤ ألوية (علائية = آلانية، ايجل سلفكة، طرسوس، سيس = قوزان) من الأناضول. ثم إسكان عدد كبير من الأتراك الأناضوليين. وبينما كان

---

(١) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص٣٧٠.

(٢) سردار: من الفارسية سر بمعنى الرأس ودار بمعنى صاحب والسردار القائد، ولقد كان السلاطين العثمانيون يقودون الجيوش بأنفسهم، ثم صاروا يعهدون بذلك إلى الصدور العظام والوزراء، ثم إلى رجال الجيش، وكان الصدر الأعظم يخرج معه طوائف من الإنكشارية والجبجية والطوبجية أى المدافعين والسوارى (أى الفرسان) وطوائف من الدفترداية ورجال الخزنة والقبودان (انظر، أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى، من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧، ص١٢٧).

تعداد قبرص التى يسميها الأتراك (يشيل أده) (أى الجزيرة الخضراء) عند الفتح ١٢٠٠٠٠ زادت إلى ٣٦٠,٠٠٠ .

منحت الدولة العثمانية لرئيس الأساقفة الأرثوذكي كافة الصلاحيات منها الصلاحيات المدنية بالنسبة للجماعية الرومية، ولم تكن لرئيس الأساقفة هذه الصلاحية فى العهد البندقى فى الوقت الذى غنم الأتراك المدافع الموجودة فى الجزيرة. وعددها ٧٦٠ مدفعًا. بقى "فاتح قبرص" لالا مصطفى باشا فى الجزيرة مدة سنة ونصف شهر فى ١٥ أيلول ١٥٧١[١]. أما عن هزيمة اينبختى Inebahti فى ٧ أكتوبر ١٥٧١م. فقد عقد البابا فى ٢٥ مايو (آيار) ١٥٧١ معاهدة الاتفاق ضد الدولة العثمانية مع ملك أسبانيا، ودوج البندقية وضموا إليها بعض الدول الصغيرة. هذا الاتفاق ١٣ الموجه ضد الدولة العثمانية منذ تأسيسها ذكر البابا بيوس الخامس فى الكتاب الذى حرره إلى ملك أسبانيا فيليب – ابن شارل – كوينت المؤرخ ٨ مارس (اذار) ١٥٧٠ ما يلى: "لا توجد فى العالم المسيحي أية دولة مسيحية يمكنها أن تقف لوحدها تجاه العثمانية، وبناء على ذلك يجب على كافة الدول المسيحية أن تتحد لتكسر الغرور التركى".

كانت أجهزة المخابرات العثمانية فى البندقية وروما قد أبلغت الديوان الهمايونى خبر معاهدة الاتفاق عندما كانت فى مرحلتها التحضيرية، على بساط المفاوضات وفى سنة ١٥٧٠ وصيف ١٥٧١، كان الأسطول الهمايونى قد بحث عن الأسطول المسيحيى ولم يعثر عليه، ولعل ذلك يؤكد أن الدولة العثمانية لم تكن غافلة.

كان قائد الأسطول الوزير الثانى برتو باشا، قد تسلم أمر العثور على الأسطول المسيحيى وإبادته، وكان الديوان قد أعطى الأمر القطعى ذاته إلى قائد القوات البحرية. لكن كلاً من برتو باشا ومؤذن زاده على باشا، كانا قائدين لم يركبا السفن إلا حديثًا وقضيا حياتهما كجنرالين فى القوة البرية، مع أن الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط كان يبلغ نحو ٤٠٠ سفينة، لكنها توزعت عند حلول الخريف إلى قواعد مختلفة. أما السفن الـ ١٨٤ التى تشكل القسم الكلى، فهى بإمرة برتو باشا ومؤذن – زاده على باشا، فقد جاءت إلى قاعدة اينبختى (Le Panto) ذهب عدد غير قليل من الضباط بإذن أو بدون إذن إلى هنا وهناك لقضاء الشتاء. ويظهر كذلك أن الجنرالين لم يتمكنا من السيطرة على الأسطول وضبطه. وهناك عدد كبير من السفن كانت تحتاج إلى إصلاح وأودعت فى ترسانة التصليح فى اينبختى بسبب

(١) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص٣٧٠– ٣٧١.

سيرها مدة طويلة. واينبختى Inebahti، ميناء عثمانى فى اليونان على خليخ باتراس – كورنثوس – الساحل المواجه لها مورا وميناء Patras[١].

كان الأسطول المسيحى أرمادا يحتوى على ٢٩٥ سفينة و٣٠٠٠٠ جندى، ١٦٠٠٠ جداف (فورسا) و٢٠٨ من السفن الحربية (قادرغه)، ١١٤ منها بندقية، ٧٠ أسبانية و١٢ بابوية و٦ مالطية و٣ جنوية، و٣ سافوائية. كان القائد العام أخو فيليب الثانى Don Juan "وهو ابن الإمبراطور كارلوس الثانى كان قائد الأسطول البندقى الأميرال الكبير Veniero، والأسطول البابوى الأمير Marco Antonio Colonna . ويقود الأسطول الأسبانى Giovanni Andrea Doria الذى هزم فى جربه أمام بيالة باشا. كان الأميرال – الكبير لصقلية Cordona على رأس ٨ قطع من الأسطول الطليعى. كان الأميرال – الكبير لنابولى Marki Bazzano على رأس أسطول الاحتياط المكون من ٣٠ قطعة. ويحتوى الأسطول على أميرالات مشهورين بينهم دوق Parma أميرال – كبير جنوة دوق Urbano أميرال – كبير كاستيليا، صهر ملك البرتغال ولى عهد بارما Franses Alessa dro أميرال – كبير مالطة Guistiniani[٢].

كان الأسطول العثمانى يحتوى على ١ وزير (مارشال، الوزير) (برتو باشا) ٤ فريق أول بحرى (قائد القوات البحرية مؤذن – زاده على باشا، والى الجزائر ألولوج على باشا، والى طرابلس الغرب جعفر باشا وبربروس – زاده حسن باشا الذى كلف بواجب المستشار لبرتو باشا) ١٥ لواءً بحريًا، ونحو ٢٠٠ قائد سفينة (قبطان). كان حسن باشا الذى يعيش أشهره الأخيرة فى الـ ٧١، وألوج على باشا فى الـ ٦٤ من عمره. كان من بين الألوية البحريين صالح باشا – زاده محمد بك بربروس – زاده محمود بك ابن حسن باشا المولود من ابنة طرغدجه باشا. كان جميع الجدافة الموجودين فى الأسطول العثمانى على الإطلاق من المسيحيين. كان هذا الأمر عنصرًا مهمًا. ثم إن كثيرًا من الضباط الذين شاهدوا السفن وقد ألقت من مراسيها فى اينبختى لقضاء الشتاء وتوقعوا أن العدو لا يهجم فى هذا الموسم، انفصلوا عن سفنهم، وفضلاً عن ذلك كان هناك نقص فى الجدافة.

وعلى أثر اقتراب العدو، جمع برتو باشا فى سفينة الأميرالاية ١٩ أميرالاً ٤ منهم فرقاء أول (بكلر بك) و١٥ منهم ألوية (سنجق بك) وعلى أثر اختلاف الرأى وانقسامه إلى قسمين، انفض المجلس الحربى دون قرار. كان الثقل فى جانب برتو باشا ومؤذن – زاده على

---

(١) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص٣٧٢– ٣٧٣.

(٢) نفسه، نفس الصفحات.

باشا، إذ أن كليهما كانا مسئولين أمام الديوان. كلاهما لم يكن من البحرية. اقترح أمراء البحر الحقيقيون تكتيكًا مغايرًا وأصروا عليه وخاصة أولوج على باشا، ولكنهم لم يفلحوا فى إقناع برتو باشا ومؤذن – زاده على باشا. أراد الأميرالات عدم دخول هذه المعركة إلا بعد قصف قطعات العدو بمدافع القلاع وإتلافها ومن ثم تعقبه. وعندما أفاد برتو باشا وعلى باشا بأنهما استلما أمر الهجوم بصورة مؤكدة، أجابوا بوجوب الخروج إلى البحار المفتوحة. أفاد الباشوات بأنهم لن يبتعدوا عن الساحل. أكد قائد القوات البحرية خاصة أنه هو المسئول عن الأسطول وكرر ذلك مرارًا، إن عباراته التالية تدل على جهله أصبحت فى ذمة التاريخ: "أى كلب هو ذلك الكافر حتى تخافه؟" إننى لا أخشى على منصبى ولا على رأسى، إن الأوامر الواردة من الديوان تشير إلى الهجوم"، لا ضير من نقص خمسة أو عشرة أشخاص من كل سفينة. ألا توجد غيرة على الإسلام، ألا يصان شرف البادشاه؟" ولم يجد صياح وألوج نفعًا إذ قال "أين الذين حاربوا مع خير الدين باشا وطرغدجه باشا، لماذا لا يتكلمون، هل يمكن أن تكون حرب بحرية فى ساحل؟"(١).

جرت حرب اينبختى (Le Panto) إحدى الحروب الكبرى فى التاريخ، بشكل دموى رهيب. استشهد قائد القوة البحرية مؤذن – زاده على باشا وابنه، وأسر الأسبان ابنه الأخر. قتل الأميرال البندقى Barbarigo. غرقت سفينة الأميرالية لبرتو باشا وشدت إلى الساحل بتضحية كبيرة، وأنقذت، كان أولوج على بك يقود الجناح الأيمن. لم يفقد أية سفينة حربية من سفنه البالغ عددها ٤٢. أباد كامل الأسطول المالطى الذى جابهه. قتل الأميرال – الكبير الماطى واغتنم رايته. استصحب بربروس – زاده حسن باشا وابتعد عن ساحة القتال. حيث لم تعد ترجى فائدة من المركز والجناح الأيسر العثمانى.

إن كشف خسائر الحرب كان مخيفًا لكلا الطرفين. ١٤٢ سفينة عثمانية بين غريقة وجانحه على الأرض أول مستولى عليها. استولى العدو على ٦٠ سفينة، اقتسمت بين دول الاتفاق. كما استولى على ١١٧ مدفعًا كبير، ٢٥٦ مدفعًا صغيرًا صالحة للاستعمال خرجت من هذه السفن. تم تخليص ٣٠٠٠٠ من الأسرى الجدافة المسيحيين الذين كانوا فى الأسطول الهمايونى. سقط آلاف من العثمانيين يقارب ٢٠٠٠٠. كانت خسائر المسيحيين ٨٠٠٠ قتيل، ٢٠,٠٠٠ جريح. وقليل جدًا من الأسرى. ولم تبق تقريبًا سفينة حربية أو ناقلة مسيحية غير مصابة. فقد Cervantes كاتب دون كيشوت – الذى كان قد عاش سنين طويلة فى الجزائر كأسير لدى العثمانيين – ذراعه الأيسر. جرح أيضًا القائد Don Juan.

---

(١) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص٣٧٣– ٣٧٤.

كان ٣ أسرى من العثمانيين برتبة لواء بحرى وأحدهم ابن قائد البحرية. حاز المسيحيون على ٣ شارات رأس لبرتو باشا، رأية مؤذن – زاده الحريرية المطرزة بالذهب (أعاد البابا هذه الراية إلى تريكا فى ١٩٦٥ كرمز للصداقة).

لم تكن خسارة الدولة العثمانية خسارة مادية، وإنما كانت خسارة معنوية. زالت شهرتها بأنها دولة "لا تقهر" وثبت فعليًا إمكان قهرها. كانت الدولة العثمانية حقًا هى المنتصرة فى حرب البندقية. ولم تكن اينبختى سوى حرب واحدة ضمن تلك الحروب، لكنها كانت حربًا ذات مغزى كبير. رقصت أوربا فرحًا[١].

أثبتت اينبختى بأنه يمكن قهر العثمانيين. ولكن لو نظرنا إلى نتيجة الحرب كما كتبها فولتير فى Essai sur les Moeurs لاعتقد المرء بأن الأتراك هم الذين انتصروا فى اينبختى إن هذا الانتصار لم يحقق للمسيحيين والدول المسيحية أدنى مكسب، فهذه الهزيمة أفادت العثمانيين من حيث اثبات أنهم أمة على درجة من القدرة والرفاهية، فهم قد شيدوا عددًا من السفن يعادل ما فقدوه فى اينبختى، وجهزوها وأنزلوها فى البحر المتوسط خلال عدة أشهر... ويعتبر هذا العمل من أسرع الأعمال التى سجلها التاريخ، وفى الوقت الذى كان البنادقة يشيدون التماثيل فيه على شرف انتصارهم، كان العثمانيون يعملون فى مصانع سفنهم على قدم وساق وبجهد منقطع النظير، لقد منح البادشاه قسمًا من أراضى حديقته الخاصة إلى المصنع لغرض إنشائه ٨ سفن، وشيد العثمانيون خلال شتاء واحد وهو الذى عقب اينبختى ١٥٣ سفينة حربية وجهزوها وهى أكثر من التى فقدوها فى اينبختى وبذلك يكون الأسطول العثمانى قد فاق عدد مجموع سفن دول الاتفاق. وأساسًا فإن المعاهدة التى عقدت مع البندقية صريحة جدًا، وهى تبين من هو المنتصر فى الحرب. إن انتصار اينبختى لم يجد نفعًا للمسيحيين.

ولتقوية الروح المعنوية لشعب استانبول، استصحب أولوج على باشا صديقه بربروس – زاده حسن باشا مع القطع البحرية الموجودة فى بحر ايجه ودخل استانبول بعد الهزيمة بشهرين، و١٣ يومًا مع أسطول كبير يتألف من ٨٧ سفينة حربية. مثل الأميرال بين يدى سليم الثانى، وبدل أسمه إلى "قيلج على" (على القاطع أو على السيف). تمت ترقيته من منصبه إلى قائد القوات البحرية وناظر البحرية. وهكذا دخل بين أعضاء الديوان بحار صلب لا يستريح له صوقوللو أبدًا، لكن الوزير الثانى برتو باشا، أحال نفسه على التقاعد. سار صوقوللو وزيرًا ثانيا. توفى بربروس – زاده حسن باشا بعد عودته إلى استانبول[٢].

---

(١) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص٣٧٤، ٣٧٥.

(٢) نفسه، ص٣٧٤، ٣٧٥.

غادر قيلج على باشا استانبول مع ٢٤٥ سفينة حربية ١٣ يونيو (حزيران) ١٥٧٢. كانت خطة أسطول الحلفاء إنقاذ قبرص، ولكنه كان قد قدم ضحايا كثيرة من السفن من البشر، ولعدم امتلاكه مخزوناً من الأطعمة لم يتمكن من الدخول إلى قبرص، فاتجه إلى المياه العثمانية بعد أن ضمد جراحه يأمل الاستيلاء على مورا ومودن. لكن دون جوان ابتعد وذهب حينما شاهد قيلج على باشا قادمًا مع أسطوله ومتجهًا نحوه. إذ تمكن الأسطول العثمانى من تعويض خسائره خلال شتاء واحد خيب آمال أسبانيا والبندقية. اختلف دون جوان مع البنادقة أيضًا وعاد إلى أسبانيا. مات البابا بيوس الخامس الذى كتب رسالة إلى الشاه الصفوى كما كتب إلى الإمام الزيدى فى اليمن يدعوهما للتحالف فى الأول من مايو (أيار) ١٥٧٢.

عقدت معاهدة استانبول بين الدولة العثمانية والبندقية بتاريخ ٧ مارس عام ١٥٧٣، وهى تتكون من ٧ مواد من بينها تسدد البندقية إلى الدولة العثمانية ٣٠٠٠٠٠ ليرة ذهب كغرامات حرب رمزية، تزداد الضريبة السنوية لجزيرة زنتا Zenta الموجودة فى حوزة البندقية من ٥٠٠ ليرة ذهب إلى ١٥٠٠ تبقى قبرص لدى الدولة العثمانية. تلقيت البندقية – التى خشيت من احتمال قيلج على باشا على كريت – خبر الصلح بسرور.

تحرك قيلج على باشا بالأسطول من استانبول فى السنة التالية فى الثالث من يونيو (حزيران) ١٥٧٤ كان الوزير الثانى داماد بيالة باشا موجودًا كذلك ثم تدمير سواحل إيطاليا الجنوبية المشرفة على بحرى Tiren و Adria كانت هذه الحملة التى تمت بـ ٢٢٠ سفينة حربية مقدمة لفتح تونس. لقد كان الاستيلاء على قبرص من البندقية بمثابة تعويض عن خسارة اينبختى، وسوف نستولى على تونس من أسبانيا[١].

ورغم ترحيب القبارصة الأرثوذكس بالحكم العثمانى الذى أنقذهم من الاضطهاد الكاثوليكى الذى مارسته البندقية لعدة قرون، إلا أن احتلال العثمانيين للجزيرة أثار الدول الكاثوليكية التى أعدت حملة كان الهدف منها ليس فقط استرجاع قبرص بل استعادة كل الأراضى المسيحية التى سبق للعثمانيين الاستيلاء عليها. وقد استطاع الحلف الكاثوليكي – الذى تزعمه البابا واشتركت فيه البندقية والنمسا أن يوقع بالأسطول العثمانى هزيمة كبرى فى معركة لبانتو ١٥٧١ التى فقد فيها الأسطول العثمانى ٩٤ سفينة جرى إحراقها أو إغراقها، بالإضافة إلى ١٣٠ سفينة أخرى تم أسرها، وفقد ٣٠٠٠٠ مقاتل كما أمكن للأوروبيين أن يحرروا ٣٥٠٠ مسيحى من العبيد المجدفين فى السفن العثمانية. وقد اختلفت أوربا جميعا بنصر لبانتو: فلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين، كما أصبح

---

(١) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، المجلد الأول، ص٣٧٥، ٣٧٦.

القسم الشرقى من البحر المتوسط من جديد تحت سيطرة المسيحيين الـذين تفتحـت شـهوتهم لمزيد من الفتوح. ورغم أن معركة لبانتو لم تؤد إلى النيل من السيطرة البحرية العثمانية، فقـد أثبتت أنه من الممكن هزيمة العثمانيين الذين سرعان ما بنوا أسطولاً جديدًا، فى الوقت الـذى تخلى فيه البنادقة عن حلفائهم وسعوا إلى عقد صلح منفرد وافقوا بمقتضاه على التنـازل عـن قبرص. وبعد انسحاب البندقية من الحلف أغار الأسطول العثمانى الجديد على سواحل جزيرة صقلية وجنوبى إيطاليا – وفى عام ١٥٧٤ انتزعت تونس من الحفصيين الذين كانت تـساندهم القوات الأسبانية، وبذلك استعاد العثمانيون سيطرتهم على غربى البحر المتوسط[١] وتـم نقـل عدد كبير من أتراك الأناضول الذين لا يزال أحفادهم مقيمين بالجزيرة[٢].

وعلى الرغم من أن معركة ليبانت كسرت سيطرة العثمانيين التى تحققـت لهـم منـذ معركة بروزه ١٥٣٨، إلا أنها يمكن أن تعتبر رمزًا لنصر عسكرى مميز أكثر منـه مـسألة حيوية فى نتائجها الفعلية. كانت هذه المعركة وسيلة لكى يلتفظ الأوروبيون أنفاسهم ويتنفـسون الصعداء. إلا أن الدول المتحالفة لم تستثمر هذا النصر الذى أحرز. ولم تفقد الدولة العثمانيـة شيئًا من أملاكها رغم أن هذه الضربة كانت عنيفة.

وقد جعلت هذه الهزيمة الأوروبيين يعتقدون فى إمكانية هزيمة القوة العثمانيـة التـى كانت لا تهزم فى البر أو فى البحر. أصبح الاعتقاد عندهم أن أى قوة يمكن أن تهزم كما تهزم قواتهم أمام العثمانيين. هزت هذه الهزيمة الساحقة الشهرة الكبيرة للدولة العثمانية فـى البحـر المتوسط. وتعد الحادثة الثانية بعد حادثة تيمورلنك[٣].

وقد اعتبرت قبرص إيالة بعد ضم طرسوس وعلائية وإيجل إليها، حسب نظـم الإدارة العثمانية، وعُين مظفر باشا أمير سنجق أولونيا واليًا عليها[٤].

وكانت قبرص تتخذ دائمًا كمنفى للأمراء المماليك طوال العصر العثمانى، وظهر ذلك واضحًا فى أزمة جركس محمد الكبير عام ١٧١٩، عندما اشتد الصراع بين الأمراء المماليـك

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى، فى أصول التاريخ العثمانى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٢، ص١٤٧.

(٢) نفسه، ص١٤٦.

(٣) أحمد فؤاد متولى، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبى، ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٤) نفسه، ص٢٧٩– ٢٨١.

وتم نفيه – جركس محمد – إلى هناك[١].

وكان ميناء الإسكندرية من اكبر المراكز التجارية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، حيث صدر منها منتجات الشرق الأقصى، وقد حرص السلاطين المماليك على الترحيب بالتجار الأوروبيين الذين يفدون إلى الإسكندرية ودمياط لشراء الحاصلات الشرقية، كان هؤلاء التجار الأوروبيون يفضلون الإقامة دائمًا بالمدن التجارية بالثغور على شاطئ البحر المتوسط[٢].

وكان للقبارصة فندق[٣] بالإسكندرية قبل سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، حيث كانوا يتاجرون فى العبيد ويعقدون صفقات بيعهم فى فندقهم. واتصفت فنادق الإسكندرية بمبانيها المربعة ولبعضها أكثر من طابق كما أن لكل فندق حوشًا داخليًا سماويًا ويفتح عليه الطابق الأراضى حيث توجد المخازن، وتستخدم كمخازن. وفى الحجرات العليا حجرات متعددة لإقامة التجار وتحيط بالفندق حديقة يزرع بها التجار أشجارًا من أوطانهم تعطى منظرًا فريدًا فى بلادهم، لذا كان المبنى يعتبر قطعة من الوطن الأم يجدون فيه الحرية والأمن والحماية لهم ولسلعهم، وحرَّم عليهم شرب الخمور جهارًا وإن سمح لهم ذلك فى الفندق[٤].

وتبدو أهمية قبرص لوقوعها على الطريق التجارى البحرى إلى الشام وآسيا الصغرى، وهى ملجأ للتجار إذا حاق بهم أى ضرر فى بلاد السلطنة المملوكية أو العثمانية، بل ن القبارصة قاموا فى أوقات عصيبة بالنسبة للأوروبيين بنقل متاجر الشرق من صور

---

(١) أحمد شلبى عبدالغنى الحنفى المصرى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العينى، تقديم وتحقيق وضبط وتصحيح، عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، الخانجى، القاهرة ١٩٧٨، ص٢٩٩.

(٢) إبراهيم حسن سعيد، البحرية فى عصر سلاطين المماليك، دار المعارف الإسكندرية، ١٩٨٢، ص٣٠٤.

(٣) الفندق: اسم الفندق مأخوذ من الكلمة اليونانية Pandokeion ونقلت إلى اللغة الإيطالية لتدل على المبنى الذى بأسفله مخازن وأعلاه حجرات نوم لسكن الأجانب (انظر، نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، ص١٨٢– ١٨٤). ويذكر صبحى لبيب التجارة الكارمية وتجارة العصور الوسطى، وتعرف فى مصر باسم فندق وفى بعض الأحيان وكالة وفى سوريا باسم الخان. (ص١٤) نقلاً عن نعيم زكى فهمى، المرجع السابق، ص٢٨٨).

(٤) نعيم زكى فهمى، المرجع السابق، ص٢٨٨.

وصيدا وبيروت والإسكندرية وإنطاكية إلى جزيرتهم حيث ينتظرها البنادقة الجنوبيين وغيرهم. وميناءها فاما جوستا مزدحم دائمًا بالسفن وبباقى المؤانى فنادق ووكالات مليئة بالمتاجر والتجار من عرب وترك وجنويين وبنادقة وفلورنسيين وغيرهم. وفاما جوستا من أشهر موانئ شرق البحر المتوسط تصلها التجارة من وسط آسيا برًا ثم بحرًا، وكذلك من حلب وديار بكر والإسكندرية ووسط الشام والعراق. وتمتلئ أسواقها بالحرير والكتان والقطن وجوز الهند واللبان والجلد والنحاس والفواكه والعنب" الخص الطازج" والمجفف والمطاط والصابون والشب من طرابيزون وبروسة والحرير والسجاد من قونية والفراء وعاج أفريقيا والأحجار الكريمة من الشرق الأقصى، ويدفع القبارصة ١٪ من رسوم الجمارك فى حين يدفع الأجانب ٤٪ واتخذت البندقية الجزيرة مركزًا كبيرًا لجميع متاجرها شرق البحر المتوسط بعد أن ساءت العلاقات بينها وبين السلطات العثمانية، وحصلت من السلطات المملوكية على حق حكم الجزيرة مع دفع الجزية السنوية، وبذلك ضمنت البندقية حرية تجارتها وحماية مخازنها فى شرق البحر المتوسط(١).

ولقد اشتملت الحياة الاقتصادية للقبارصة فى مدينة الإسكندرية جميع أوجه الأنشطة المعروفة. فى ذلك الوقت سواء التجارة أو الصناعة أو الحرف أو قطاع الأموال. وتعطينا وثائق المحكمة الشرعية شكلاً واضحًا لتعاملهم فى التجارة وطرق التعامل فى هذا المجال.

فقد عملوا بتجارة الزيت الطيب مع بعض الأهالى، وتقايض أحيانًا هذه السلعة بالسمك المملح والخوخ، وفى مثل هذه الحالة ينفق على الكميات والأسعار، ويدفع الفرق بين السعرين(٢). والدقيق(٣)، والبقسماط(٤) والخروب(٥)

---

(١) نعيم زكى فهمى، المرجع السابق، ص١٨٢- ١٨٤.

(٢) سجل محكمة الإسكندرية الشرعية رقم ٤٣، مادة بدون رقم، ص٧٦، بتاريخ ٨ ذى القعدة عام ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م. وسأشير إليها بعد ذلك بالسجل فقط.

(٣) سجل رقم ٢٥، مادة ١٠٠٥، ص٣٢٤، بتاريخ ٩ ذى الحجة عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م.

(٤) سجل رقم ٢٧، مادة ٤٥٨ بتاريخ ١١ صفر عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م. والبقسماط: بالمفاهيم العسكرية لذلك الزمان، فإن تجهيز يعنى قيام حملة عسكرية للغزو، وهو ذلك النوع من الخبز الذى يصلح لفترات طويلة لاستخدام الجنود. (انظر، عبدالوهاب بكر، الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص١٣١).

(٥) سجل رقم ٢١، مادة ٧٣٠، ص٧٦٧، بتاريخ ١٦ جماد الثانى عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م؛ سجل رقم ١٧ مادة ٦١، ص٢٠ بتاريخ ١٢ شعبان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

والكتان[١] والجلود[٢] الذى يستعمله السروجية[٣] وقد يتعاقدون أحيانًا على صفقات كبيرة قد تصل ثمنها إلى تسعة وثلاثين دينارًا ففى مثل هذه الحالة يدفع ثمنها أسبوعيًا[٤]. وقد تكون الصفقات كبيرة تصل أحيانًا إلى أربعمائة أقة[٥] وتحدد سعر الأقة بعشرة أنصاف فضة[٦] أى

---

(١) سجل رقم ١٤، مادة ١٧٨، ص٥٦ بتاريخ ١٩ جمادى الثانى عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠.

(٢) سجل رقم ٢١، مادة ٧٣٠، ص٢٦٧، بتاريخ ١٦ جمادى الثانى عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م.

(٣) سجل رقم ٥، مادة ٣٧٠، ص١٣١، باريخ غرة شعبان عام ٩٩٦هـ/ ١٥٥٨م.

السروجى: جمعها سروجية، وهم صناع طقم الحصان، وعدة لجامه، والأدوات الجلدية المستخدمة كسروج للدواب، ومنها اللجام والبردعة، والسرج والشدة والقربوص، وغير ذلك (انظر: عبدالحميد سليمان، مقطعة الخردة وتوابعها، دراسة فى التنظيم المالى والضرائبى للحرف الهامشية والبسيطة فى مصر العثمانية، مجلة كلية التربية، جامعة المنصورة، ٢٠٠٢، ص٥٣).

(٤) سجل رقم ٤٩، مادة ٤٠١، ص١٥٣، بتاريخ ٤ صفر عام ١٠٦٥هـ/ ١٦٥٤. * الدينار الذهبى، يساوى خمس وعشرين بارة، ولكن عقب انهيار النقد عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٣، وأصبح كل خمس ثمانين بارة تساوى دينارًا شريفيًا (انظر: عفاف مسعد العبد، دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر، ص٤٣).

(٥) سجل رقم ٥، مادة ٣٧٠، ص١٣١، بتاريخ غرة شعبان عام ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م. * الأقة: وحدة وزن عثمانية تزن ٤٠٠ درهم، كل درهم ٢٠٧ و ٣ جرام = ١,٢٨٢٨ كجم (انظر، فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمه عن الألمانية كامل العسيلى، منشورات الجامعة الأردنية، عمان ١٩٧٠، ص١٩م).

(٦) نصف فضة: نقد تركى، ترجع أقدم إشارة إليه فى سنة ١٥٨٣م، وقد ضرب أولاً من الفضة بقيمة قدرها أربع أقجات "أخشا، وسرعان ما اختلف مركز "الأخشا" باعتبارها الوحدة النقدية التركية الصغرى، حتى أصبحت "الفضة تساوى ١: ٤٠ من القرش، بوزن قدره ست عشرة قمحة أى ١,١١ جرام، ثم انخفض وزنها إلى ربع ذلك فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى، وقل ما فيها من فضة، وفى نظام العملة المجيدى الذى اتبع سنة ١٨٤٤م، أصبحت الفضة قطعة صغيرة من العملة النحاسية، تضرب فى استانبول فى مصر على السواء، وقد أطلق الأتراك على الفضة اسم "بارة" الفارسية. ويرادف اسم البارة "والفضة" فى عصر الجبرتى اسم "نصف فضة" و"مؤيدى" وقد كانت هذه العملة وسيلة هامة لتحقيق مرونة العمليات التجارية فى مصر وقد ظهر ذلك بوضوح فى إبريل سنة ١٨٠٣ حين حدث امتصاص كبير "للفضة الأنصاف" من الأسواق المصرية أولاً بأول لبيعها بالشام بسعر أزيد مما هو عليه فى مصر، بحيث، لا يترك إلى الصيارف منها إلا القليل حتى شحت بأيدى الناس جدًا ووقف حالهم فى شراء لوازم البيوت ومحقرات الأمور". ولم يكن حال هذا النوع من النقود فى عصر محمد على بأحسن حالاً، ففى يناير ١٨١٢ عدمت "الفضة العددية فى أيدى الناس فيدور الشخص بالقرش وهو ينادى على صرفه بنقص أربعة أنصاف نصف يوم حتى يصرفه" ومن ثم أصبحت الفضة العددية" أو الأنصاف" مجرد نقود حسابية لا وجود لها فى الواقع، ولكن لا يزال اسم النقد الفضة "مستعملاً فى ريف مصر حتى اليوم فيطلقه العامة على أجزاء القرش أو مضاعفاته على أساس أن القرش يساوى "أربعين نصف فضة" أو أربعين بارة فيقال "عشرة فضة" وستين فضة، وهكذا. (انظر، عبدالرحمن=

بإجمالى أربعة أنصاف فضة وتجارة العبيد والجوارى[١] ولوحظ أن سعر الجارية مرتفعًا من سعر الرجل[٢].

ويشهد قطاع التجارة للقبارصة فى مدينة الإسكندرية كثيرًا من المنازعات فى هذا الميدان، الذى يعطينا صورة عن طريقة التعامل البسيطة وطريقة التقاضى، والأحكام التى تصدر أو الطرق التى كانت تتبع لتسوية الخلافات بطرق ودية، وأرشيف المحكمة الشرعية بالإسكندرية ملئ بهذه الصورة المعبرة عن أنماط وأساليب هذا العهد العثمانى.

وأحيانا تحدث بعض المشاكل بخصوص مقايضة الزيت الطيب على المقايضة بالسمك المملح والجوخ، ودفع فرق الثمن المتفق عليه، ولكن يتعثر فى دفع المبلغ المتبقى وينتهى الأمر لرفع شكواه إلى القضاء الذى يتعهد فيه برد المبلغ المتبقى[٣]، وقد يكون الخلاف على شحن كمية معينة من الخمر من قبرص، فقد ادعى ريس المركب أنه كسرت إحدى العبوات، واتضح عكس ذلك وفرض عليه عشرين دينارًا ودفع المبلغ[٤]، أو قرض شرعى عندما يطالبه بذلك يدعى المقترض بأنه ليس قيمة كل المبلغ، وينتهى الأمر بمصادرة بعض الأوانى النحاسية الخاصة وفاء لقيمة القرض[٥]، وقد يكون المبلغ المطلوب ثمن صفقة بقسماط، تقدر بستة قناطير بمبلغ ثمانية دنانير ذهب، وعند المطالبة أفاد بأنه دفع المبلغ، ولكن عندما طلب منه القسم، اعترف بالمبلغ وسدده[٦]، وحدث أن اتفق بعضهم على

=فهمى، النقود المتداولة أيام الجبرتى، بحث فى عبدالرحمن الجبرتى، دراسات وبحوث، إشراف أحمد عزت عبدالكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦، ص٥٧٣).

(١) سجل رقم ١١، مادة ٣٣٢، ص٩٦، بتاريخ ٢٨ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

(٢) سجل رقم ٢١، مادة ٧٣٠، ص٢٦٧، بتاريخ ١٦ جمادى الثانى عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧.

(٣) سجل رقم ٤٣، مادة بدون رقم، ص٧٦، بتاريخ ٨ ذى القعدة عام ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م.

(٤) سجل رقم ٣٢، مادة ١٠٣١، ص٣٨٦، بتاريخ ٦ صفر عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م.

(٥) سجل رقم ٣٢، مادة ٦١، ص٢٠ بتاريخ ١٢ شعبان ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

(٦) سجل رقم ٢٧ مادة ٤٥٨، ص٢٢٧، بتاريخ ١١ صفر عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م. * والقنطار: كان يوجد فى مصر خمسة أنواع من القناطير:

١- القنطار الفلفلى للبهارات والتوابل وما شاكلها. وكان يستعمل بصورة رئيسية فى الإسكندرية. وكان يتألف من ١٠٠ رطل، كل رطل ١٤٤ درهمًا ٣ أى أنه كان يزن ٤٥كجم.

٢- القنطار الليثى كان يتألف من ١٠٠ رطل ليثى، كل رطل ليثى ٢٠٠ درهم أى أنه كان يزن ٦٢ كجم.

٣- القنطار الجروى، كان يساوى ١٠٠ رطل جروى، كل رطل ٣١٢ درهمًا أى أنه كان يزن ٩٦,٧كجم. وقد قدر حوالى سنة ١٤٤٩ بـ ٣١٨ باوندًا بندقيًا = ٩٥,٨كجم. =

بيع صفقة من الشمع الأصفر لأحد السروجية وقدرت الكمية بـــ ٤٠٠ أقة ولكن حدث خـــلاف عند الدفع حيث أنكر المشترى الكمية وحددها بـــ ٢٨٠ أقة، ودفع الثمن على هذا الأســـاس[١]، وحدث أن وكل بعضهم أحد الأهالى لبيع بعض المفروشات لحسابه (بساط وجوخـــة ولحـــاف) بملغ أربعة دنانير ذهب، ولكن الوسيط استولى عليها ولم يدفع لـــه المبلـــغ المطلـــوب وعنـــد مواجهته ادعى أنه باع تلك الأشياء بدينار واحد، ولكنه ألزم بدفع الباقى، ولوحظ أنه دفع دينار واحد الذى باع به[٢]، ويحدث مشاكل فى مقايضة الكتان بالخمر، فبعدما تسلم كمية الكتان مـــن البائع لم يورد له كمية الخمور المتفق عليها، ولما طالبه بذلك ادعى أنه محرم بيع الخمور[٣].

وحدث أن أحدهم اقترض من بعض اليهود قرضًا قيمته أربعة وعشرين قرشاً وســـدد احدى وعشرين قرشا وتبقى لديه ثلاثة قروش، ووضع لديه رهنًا شمل بعض الأوانى الفـــضية وبعض الأقمشة، وقام بالتسديد وعندما طالب برد الأشياء المرهونة، رفض بحجة أنه لم يـــسدد الباقى ولكن المقترض أحضر الشهود وأثبت أنه سدد، واضـــطر إلـــى رد الأدوات المرتهنـــة لديه[٤].

= ٤- قنطار المن لتجار الشرق الأونى قوَّم بـــ ٢٥٠ باوندًا فلورنسيًا أو ٨٤,٨٧٥كجم. والمن المـــصرى الشرعى ذى الـــ ٢٦٠ درهما كل درهم ١٢٥ و ٣ جم. يكون وزن هذا القنطار ٨١,٢٥ كجم وكان قنطار المن هذا يساوى فى الإسكندرية حوالى سنة ١٣٣٥ بـــ ٢٧٥ باوندًا جنويًا= ٨١,٤كجم.

٥- قنطار ثقيل للغاية فى الفترة الواقعة حوالى سنة ١٦٦٥، وكان هذا القنطار يتألف من ٢٤ ربعًـــا، كـــل ربع عشرة أرطال كبيرة وكل رطل ١٦٠ درهما. (انظر فالترهنتس، المكاييـــل والأوزان، الإســـكندرية، ص٤١، ٤٢).

(١) سجل رقم ٥، مادة ٣٧٠، ص١٣١، بتاريخ غرة شعبان ٩٦٦هـــ/ ١٥٥٨م.

(٢) سجل رقم ١٠، مادة ٢٧٢، ص٧٨، بتاريخ ٣ شعبان ٩٦٦هـــ/ ١٥٥٨م.

(٣) سجل رقم ١٤، مادة ١٧٨، ص٥٦، بتاريخ ١٩ جمادى الثانى عام ٩٨٧هـــ/ ١٥٧٩م.

(٤) سجل رقم ٣٧، مادة ٥٤٠، ص١٦٣، ١٦٤، بتاريخ ١٦ محرم عام ١٠١٢هـــ/ ١٦٠٢م. * والقـــرش فى الأصل تعريب Grosehen الألمانية، وهى تعنى البياستر Piastre أى النقد الأسبانى الفضة الـــذى بـــدأ ضربه وتداوله فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى، ثم استقر فى التعامل التجارى مـــع بلـــدان الـــشرق العربى، فأطلق على "البياستر" الفضة التركى اسم "غرش" و"قرش" أو "ارش" كما يسميه العامة فى مصر، وقد ضرب هذا النقد فى الدولة العثمانية لأول مرة فى عهد السلطان سليمان الثانى (١٦٩٠م) وقـــد أشـــار إليهـــا الجبرتى فى أحداث ١١٨٦هـــ/ ١٧٧٢م، وذكر أن مصر عرفت على يد على بك أجزاء القـــروش: المجـــوز والتى قيمة القطعة عشرة أنصاف، والقرش المفرد وقيمته خمسة أنصاف. وأبطل محمد بك أبوالـــذهب عـــام ١٧٧٢م، كل هذه القروش التى كانت تحمل علامة اسم "على بك" ولكن الفرنسيين ثناء احتلالهم لمصر أعادوا ضرب القروش. واستمر القرش يضرب فى مصر بقيمة تقدر بأربعين نصف فضة أو أربعين بارة. وأطلـــق عليه أحيانًا اسم القرش الرومى أو القرش التركى. وكانت لهذا القرش أجزاء منها نـــصف القـــرش، وهـــى=

وأخيرًا اشتملت سجلات المحكمة الشرعية بالإسكندرية على نوع جديد من النشاط المالى، والخلافات التى كانت تحدث فيه، وهو ميدان الاقتراض، وما قد يترتب عليها من خلافات فى تسديد مثل هذه الديون، ولقد شارك القبارصة فى هذا الميدان، فكانوا يقترضون من بعضهم، كما كانوا يقترضون ويقرضون من بعض أبناء مدينة الإسكندرية.

وقد أقرض بعضهم بقلعة الركن لأحد الأهالى مبلغ اثنان وأربعون نصف فضة، وأيضًا مبلغ ثلاثون نصف فضة ثمن خروب، مع ملاحظة أنه أخذ رهن لديه عبارة عن بعض الأوانى النحاسية(١)، واقترض أحدهم من بعض النساء الكنديوتى مبلغًا وقدره ستة عشر دينارًا ذهبيًا، وبعد مرور سبع سنوات طالبته بالقرض، فادعى بأنه دفع لزوجها أربعة دنانير، واتضح أنه لم يسدد أى جزء وانتهى الأمر بسجنه(٢)، وأقرض أحدهم مبلغ دينارين أكارسة(٣) وأقرض أحدهم للعاملين فى الصباغة بالأزرق خمسة عشر دينارًا وارتهن لديه محابس وعقد حجازى أحمر، على أساس أن تكون مقسطًا لثلاثة أشهر(٤) واقترض أحدهم من الرودسيين الذين عملوا كمترجمين مبلغا وقدره ألف واثنين وسبعين دينارًا، وقد سجل الرودسى مواصفات القبرصى الجسدية(٥)، كما اقترض بعضهم من بعض اليهود العاملين فى هذا المجال قرضًا قيمته أربعة وعشرين قرشًا سدد له إحدى وعشرين قرشًا وما تبقى من ثلاثة قروش ارتهن لديه أقمشة. وبعض الأوانى الفضية(٦).

أما احترافهم لبعض الحرف، فقبل التحدث عن ذلك لابد من الإشارة السريعة إلى تكوين نظام الحرف فى تلك الفترة والذى كان قائمًا على التكوين الدينى والعرقى للطوائف فمع استثناءات قليلة كان أعضاء الطائفة ينتمون إلى نفس المجتمع المحلى الدينى أو العرقى، وإذا مارس أعضاء نفس الديانة نفس الحرفة فإنهم يشكلون طائفة والتجار كذلك يشكلون طوائف

=قطعة قيمتها عشرين فضة أو عشرين بارة وظل لفظ "العشرين" فى ريف بلادنا إلى الآن. رغم انتهاء التعامل بالنصف فضة أو البارة التركية منذ إصلاح النقد المصرى بمقتضى القانون رقم ٢٥ سنة ١٩١٦ الذى حدد قيمة القرش المصرى بعشرة مليمات، وأضحى "المليم" هو أصغر وحدات النقود فى مصر، وتتدرج هذه الوحدة إلى أجزاء القروش ومضاعفاتها، مقدرة على أساس "المليم" وليس "الفضة" (انظر، عبدالرحمن فهمى، المرجع السابق، ص٥٧٤، ٥٧٥).

(١) سجل رقم ١٧، مادة ٦١، ص٢٠ بتاريخ ١٢ شعبان عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

(٢) سجل رقم ١٧، مادة ٤٣، ص١٤، بتاريخ ١٣ رجب عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م.

(٣) سجل رقم ٢٣، مادة ٢٧٣، ص٧٦، بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

(٤) سجل رقم ١٦، مادة ٩٥٥، ص٣٥٤ بتاريخ ٦ ذى القعدة عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م.

(٥) سجل رقم ١٤، مادة ٥١٢، ص١٥٢، بتاريخ ١١ شعبان عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م.

(٦) سجل رقم ٣٧، مادة ٥٤٠، ص١٦٣، ١٦٤، بتاريخ ١٠ محرم هام ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م.

على حسب بلادهم، ونوع تجارتهم وعبادتهم الدينية[١]، وقد وجدت حرف أخرى شارك المسلمون غيرهم من الذميين مثل حرفة صناعة الأحذية، حرفة العطارة[٢]، وفى نفس الوقت تقريبًا، كان بالقاهرة طوائف منفصلة (ينطبق نفس الحال على الإسكندرية) للخياطين المحليين واليونانيين[٣]، وهكذا.

وعمل بعضهم كخباز[٤] أو اسكافيًا[٥]، وقد يرسل الصبى الصغير إلى الأسطى الاسكافى وقد يكون روسيًّا، ليعلمه الحرفة ويقيم عنده، ويقدم له طعامه وشرابه وكسوته، ويعامل معاملة الوالد لولده، واتفق على ذلك[٦] وبحارة على مركب الأكريب، وفى مثل هذه الحالة يتعاقد معه صاحب المركب ويذكر المأمورية المتعاقد عليها، ولكن حدث له توعك

---

(١) ليلى عبداللطيف أحمد، دراسات فى تاريخ مصر والشام إبان العصر العثمانى، الخانجى، القاهرة، ١٩٨٧، ص٨٣.

(2) Gabrial Baer, Guilds in Egypt in Modern Times, Jerusalem, 1964, p.18.

* والعطار: هو تاجر العطور والأطياب الذكّية الرائحة أو صانعها أو مستخرجها، كانت العطارة من الصناعات المهمة؛ لاستخدام العطور فى الطقوس الدينية وفى الزينة وفى معالجة البشرة. وكان العطارون يتجمعون فى أسواق خاصة بهم؛ كانت تعرف باسم العطارين نسبة إليهم، كما كانت المؤسسات المهمة التى تنشأ فى هذا السوق تنسب إلى العطارين (انظر: حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، جـ٢، النهضة المصرية القاهرة، ١٩٦٥ ، ص٧٣٤).

(٣) سجل رقم ١١، مادة ٩٨٣، ص٢٤٣، بتاريخ ٢٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م. * الخياط: وهو الذى يخيط الثياب والخياطة من الصنائع المختصة بالعمران الحضرى ونظرًا لتقدمها كان ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام وهو أقدم الأنبياء، وربما نسبوها إلى هرمس وقد يقال أن هرمس هو إدريس. ويذكر حسن باشا أن السبكى لفت نظر الخياط إلى الاحتياط فى استخدام الحرير فلا يستخدمه للرجال، وأن أباح له أن يخيط بالحرير، كما نبهه إلى الإفراز والتقدير عند قطع القماش ليتأكد من الكفاية (انظر، حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـ١، ص٤٢١).

(٤) سجل رقم ١٦، مادة ١١٩٠، ص٤٣٥، بتاريخ ١٢ صفر ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م. * الخباز: هو صانع الخبز (انظر: حسن الباشا، الفنون الإسلامية، الجزء الأول، ص٤٤٦).

(٥) اسكافى: هو صانع النعال أو الأحذية ويقال له أيضًا الأسكاف والجمع أساكفة. وكان الأساكفة يربون الماشية لاستخدام جلدها فى صنع النعال. وفرض على هذه الماشية فى بعض الأوقات مكوس أو ضرائب ثم ألغيت بعد ذلك (انظر: حسن الباشا، الفنون الإسلامية، جـ١، ص٨٧).

(٦) الأسطى: فى الفارسية استا من الكلمة الفارسية المعرَّبة وفى التركية أوستة وهو الصانع على الصناعة ومهر فيها أو أجيز ليعمل مستقلاً. (انظر: أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق، ص١٨). سجل رقم ٨، مادة ٣٨، ص١٥، بتاريخ ٥ جمادى الثانى عام ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م.

وانقطع عن العمل لسبب مرض ألمّ به، لمدة خمسة عشر يومًا، اضطر صاحب المركب إلى دفع المبلغ كاملا وقدره ثلاثة دنانير ذهب(١).

أما حياتهم الاجتماعية فى مدينة الإسكندرية فى العصر العثمانى، فقد تمثلت فى المعاملات اليومية مع بعضهم البعض، وبينهم وبين الجنسيات الأخرى، وظهر ذلك بشكل واضح فى الزواج والطلاق والميراث، والخلافات العامة، وإعتاق العبيد والجوارى وغير ذلك من المظاهر الاجتماعية الأخرى.

تزوج أحد القبارصة من معتوقة مجرية فى محكمة جزيرة رودس فى عام ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م، بصداق وقدره مائتان نصف ثنتان وأربعون، دفع منها مائة واحدى وعشرون نصفًا، والباقى كمؤخر، ولا يدفع ولا تطالبه بذلك طالما كانت فى عصمته، واشترط أيضًا فى عقد الزواج بكسوتها صيفًا وشتاءً، وتم اثبات ذلك مرة أخرى بمحكمة الإسكندرية الشرعية فى تاريخ لاحق(٢)، وقد لوحظ فى العقد مواصفات الزوجة الجسمانية ولونها وغير ذلك، وتزوج أحد أفراد الأوجاقات(٣) بقلعة الركن من مطلقة بعد أن أوفت عدتها من مطلقها(٤)، ولم يذكر لها مقدم أو مؤخر صداق، كما تزوج أحد أفراد الأوجاقات بالحصار الكبير الأشرفى، واتفق على مقدم الزواج بست دنانير والمؤخر أربعة، وعدم مطالبتها بالمؤخر طالما أنها فى عصمته، وتزوج راكوزى من قبرصية على مقدم صداق خمسة دنانير ولم يذكر المؤخر هنا(٥).

---

(١) سجل رقم ٨، مادة ٤٩١، ص١٦٩، بتاريخ ٦ جمادى الثانى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م.* والأكريب، والجمع أكاريب، ذكر هذا اللفظ فى فرمان سليم الأول، وقد عرف بأنه سفينة حربية صغيرة تسير بالمجاديف سريعة الحركة. (انظر: درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، الإسكندرية، ١٩٧٤، ص١٣٠).

(٢) سجل رقم ٣٨، مادة ١٩٧، ص٥٠ بتاريخ ١٠ محرم عام ١٠٢٧هـ/ ١٦١٧م.

(٣) معناه الموقد أو المدخنة، ثم أطلق على كل ما تنضخ فيه نار، فأطلق على البيت من وبر ومدر، ثم أطلق على أهله، ثم على الجماعة تتلاقى فى مكان واحد، ثم أطلق على طائفة من طوائف أرباب الحرف، وعلى الصنف من أصناف الجند (انظر: أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق، ص١٩٤).

(٤) سجل رقم ٣٠، مادة ٤٦، ص٢٣، بتاريخ أواخر المحرم عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م.

(٥) سجل رقم ٢٠، مادة ٩٧، ص٢٨، بتاريخ ١٠ ربيع الثانى عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م. * والحصار الأشرفى: أنشاة السلطان قايتباى (١٤٦٨- ١٤٦٩). (انظر، محمد بن أبى السرور البكرى، كشف الكربة برفع الطلبة، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحيم عبدالرحيم، ص٣٢٧).

أما فى حالة الطلاق تستلم المطلقة حقها فى المؤخر من مطلقها من أمثله ذلك كان لإحدى المطلقات دنانير مبلغ ٩ دنانير من الذهب السلطانى الجديد، ولكنها استلمت دينارين فقط، وحطب بدينار، وأيضًا اللحاف والطراحة والمخدة والملايات وغير ذلك من الأشياء، وتم التصديق على ذلك، واتفقا على الطلاق (١).

وقد اعتق أحد البنادقة جارية قبرصية وأصبحت حرة من الحرايز لها ما لهن وعليها ما عليهن(٢)، واعتق أحدهم أيضًا جارية خاصة بهم(٣).

ويوهب أحدهم ما يمتلكه من ملابس وأثاث منزله لزوجته، وثبت ذلك أمام المحكمة(٤)، وقد لوحظ فى الوثيقة أنه على الرغم من فقرة ويعمل خمار فى أحد المحلات المخصصة لذلك، بدليل أنه تنازل بمحض إرادته لزوجته. وقد يكون الميراث لخباز توفى يعمل فى مخبز بأملاك أحد الأوقاف، ويكون وريثه الشرعى موجود فى قبرص وفى هذه الحالة يثبت ذلك بشهادة الشهود(٥).

أما فى الجانب الأخر، فقد تعرض أحدهم لسرقة منزلة أثناء قيامه برحلة تجارية إلى رشيد، حيث استولى على مبلغًا قيمته ثلاثون دينارًا، وبعض الأوانى الفضية والمجوهرات، وأتهم أحد جيرانه الذى أنكر ذلك أمام القسيس ولم يعرف الفاعل الحقيقى(٦).

هذه هى أهم ملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية للقبارصة فى مدينة الإسكندرية فى العصر العثمانى، والتى تكشف عن مدى التأثير والتأثر بينهم وبين المجتمع السكندرى، وكيف أنهم أصبحوا عنصر مهمًا داخل هذا المجتمع ساهموا فى تشكيل صورته.

---

(١) سجل رقم ٦، مادة ٥، ص٣ بتاريخ ٢٩ صفر عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م.
(٢) سجل رقم ١١، مادة ١٩٠، ص٥٥، بتاريخ شعبان ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.
(٣) سجل رقم ١١، مادة ١٩١، ص٥٥، بتاريخ ٣ شعبان ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.
(٤) سجل رقم ٣٥، مادة ٤٥٦، ص١٩٩ بتاريخ ٨ ربيع الأول عام ١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م.
(٥) سجل رقم ١٦، مادة ١١٩٠، ص٤٣٥، بتاريخ ١٢ صفر ١٠١٤هـ/ ١٦٥٠م.
(٦) سجل رقم ٥٩، مادة ١٠٠، ص٣١، بتاريخ ٢ ربيع الثانى عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: وثائق لم تنشر بعد:

سجلات محكمة الإسكندرية، بالشهر العقارى بالإسكندرية قبل نقلها إلى دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة.

ثانيا: المراجع العربية:

- إبراهيم حسن سعيد: البحرية فى عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢.

- أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨.

- أحمد شلبى عبدالغنى الحنفى المصرى: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العينى، تقديم وتحقيق وضبط وتصحيح عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، الخانجى، القاهرة، ١٩٧٨.

- أحمد عبدالرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٢.

- أحمد فؤاد متولى: تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبى، القاهرة، دار الآفاق.

- جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٦٧.

- حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، النهضة المصرية، الجزء الأول والثانى، ١٩٦٥، ١٩٦٦.

- درويش النخيلى: السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية ١٩٧٤.

- سعيد عبدالفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م.

- عبدالحميد سليمان: مقاطعة الخردة وتوابعها دراسة التنظيم المالى والضرائبى للحرف الهامشية والبسيطة فى مصر العثمانية، مجلة كلية التربية، جامعة المنصورة، ٢٠٠٢.

- عبدالوهاب بكر: الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، دار المعارف المصرية، القاهرة ١٩٨٢.

- عبدالرحمن فهمى: النقود المتداولة أيام الجبرتى، بحث منشور ضمن ندوة بحوث ودراسات عن عبد الرحمن الجبرتى، إشراف الدكتور أحمد عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦.

- عفاف مسعد العبد: دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (١٥٦٤- ١٦٠٩م) الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، العدد (١٧٩) ٢٠٠٠.

- فالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها فى النظام المترى ترجمة عن الألمانية الدكتور كامل العسيلى، منشورات الجامعة الأردنية، الأردن، عمان ١٩٧٠.

- ليلى عبداللطيف أحمد: الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، مطبعة جامعة شمس، القاهرة، ١٩٧٨م.

- ليلى عبداللطيف أحمد : دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام فى العصر العثمانى، الخانجى القاهرة ١٩٨٧.

- محمد فاتح عقيل: أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر العربية، تاريخ البحرية المصرية، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤م.

- محمد صبحى عبدالحكيم: مدينة الإسكندرية، تاريخ المصريين رقم (٢٥٨)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧.

- محمد شفيق غربال: مصر عند مفترق الطرق (١٥١٧- ١٧٩٨م) إجابة حسن أفندى الروزنامجى على استيف مدير المالية الفرنسى، كلية الآداب- جامعة (فؤاد الأول) المجلد الأول القاهرة ١٩٣٦.

- مصطفى بركات: الألقاب والوظائف العثمانية، دراسة فى تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثمانى لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات، ١٥١٧- ١٩٢٤) دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٠.

- نعيم زكى فهمى: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، أواخر العصور الوسطى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

- يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، مراجعة وتنقيح دكتور محمود الأنصارى، المجلد الأول، منشورات، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، استانبول، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

ثالثًا: المراجع الأجنبية:

Gabrial Baer: Guilds in Egypt in Modern Times, Jerusalem, 1964.